

الفصل الأول

الفونيم وأنواعه

١. تمهيد:

إن الكلام الذي ننطق به يحوي تيارا مستمرا من الأصوات، ولا تتفصل تلك الأصوات التي تكوّن الكلمات عن طريق التوقف أثناء الكلام، ولكن يجب أن نستخلص تلك الأصوات والكلمات من ذلك الكم المتصل من الهواء الخارج من الجهاز النطقي أثناء الكلام، فالكلام يخرج في شكل كتل صوتية متتابعة في سلسلة صوتية أثناء الكلام المتصل، ولهذا: " يمكن وصف اللغة من حيث التمفصل المزدوج (كما عند مارتينييه). تتألف كل رسالة من سلسلة أصوات تتوافق مع سلسلة من الإشارات، كل إشارة (نموذجا: الكلمة) تملك وجهين هما الدال (الصورة الصوتية) والمدلول (المعنى)... ويتألف كل دال بدوره من سلسلة من الأصوات البدائية التي لا دلالة لها، وهي الفونيمات."^(١)

(١) الصوتيات: جاكلين فيسيار، ترجمة بسام بركة وروز الكلش. المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى بيروت نوفمبر ٢٠١٣، ص ٣٠.

٢- القيمة التواصلية للنظام الصوتي

يحقق النظام الصوتي الصفة الأساسية للغة، ووجودها الفعلي، فاللغة كما قال ابن جني: "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغرضهم"^(١) فهذا التعريف المشهور للغة حدد ابن جني ما للغة وما كنهها، وبذلك يبدو لنا الدور الرئيسي للصوت في عملية التواصل بين البشر، فالنظام الصوتي يحمل تشكيلة واسعة من المعلومات. فالمتكلم يُوصل معلومات مختلفة وفقا للطريقة التي يلفظ بها الرسالة الكلامية، والتي لا تخضع لسيطرته إلا جزئياً. فهو يعبر عن المشاعر أو الانفعالات أو المواقف، وهو يستدعي بذلك ردة الفعل هذه أو تلك لدى المخاطب، ويكشف عن هويته الاجتماعية، والإقليمية، والثقافية. هذا وتتناول الأسلوبيات الصوتية (Ivan Fonagy, Pierre Leon) هذه الأبعاد الموجودة في كل فعل تواصلٍ والبارزة خصوصاً في الاستخدام الجمالي للصوت (الغناء، الشعر، الفنون، المسرحية)^(٢).

الفونيم Phoneme

من الممكن أن نقسم الوحدات الصوتية التي ننطق بها إلى:

الفونيم Phoneme

تعريفه: هو الوحدة المتميزة الصغرى التي يمكن أن تُجزئ سلسة التعبير إليها. وباعتباره أصغر الوحدات الصوتية يمكن العمل عليها في إطار تحليل سلسة التعبير للوصول إلى مكونات تلك السلسلة؛ لمعرفة مصدر النغم و سر الانسجام الموجود في أصوات السلسلة الصوتية المنطوقة.

وهو: "الفونيم أصغر وحدة وظيفية في النظام الصوتي. وتتمثل وظيفته الفونيمات في لغة ما في إقامة مقابلات بين كلمات هذه اللغة. فإذا ظهر صوتان في الوضعية الصوتية نفسها، ولم يكن بإمكان أحدهما الحلول مكان الآخر من

(١) الخصائص لابن جني: تحقيق محمد على النجار، القاهرة ١٩٥٢م. ص ٣٣/١

(٢) الصوتيات: ٣٠

دون تغيير دلالة الكلمات، أو من دون أن يتعذر التعرف على الكلمة، يكون هذان الصوتان في هذه الحالة تحقيقين لفونيمين اثنين^(١).

نشأته: لقد انبثقت نظرية الفونيم من ملاحظة كيفيات النطق المختلفة، ووظائف الأصوات المتنوعة، ومن محاولة وضع الفبائيات للغات المختلفة^(٢) لقد كان هم هؤلاء العلماء وضع الأبجديات المختلفة للغات البشر، كما هو الحال في أنظمة الكتابة في اللغات السنسكريتية والإغريقية، أي تحويل الصوت المنطوق إلى رمز مكتوب، وهذا يعني محاولتهم تفصيل وتقسيم السلسلة الكلامية إلى أجزاء ومقاطع صوتية؛ بوضع مقابل لكل صوت منطوق عبارة عن شكل مكتوب (رمز كتابي لكل صوت) يمكن استدعاء ذلك المنطوق عن طريق الشكل المكتوب، وبذلك يكون قد تم تحليل الأصوات المنطوقة إلى مجموعة الرموز المكتوبة التي تكوّن بعد ذلك الأبجدية الخاصة بتلك اللغة، من هنا جاءت فكرة الفونيم كرمز مكتوب يعبر عن صوت منطوق.

الألفون: ولكن هذا الفونيم الذي كُنّا نظن أنه صوت واحد هو في حقيقة أمره غير ذلك (فإن السين في كلمة سماء تختلف من ناحية الصفة عنها في كلمة (سطاء) مثلا فهي في الثانية ذات قيمة تفخيمية ليست في الأولى، ومع ذلك فإننا نسمي كل واحدة منهما سينا، ونرمز لها في الكتابة برمز واحد، كما نرمز لأصوات النون المختلفة فيما مضى برمز واحد، ولا تستخدم في اللغة للتفريق بين المعاني المختلفة، هي ما يطلق عليه اسم (فونيم) Phoneme وحدة صوتية/ عائلة صوتية^(٣).

(١) الصوتيات: ٣١.

(٢) دراسة الصوت اللغوي: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب القاهرة. ط ٢ سنة ١٩٨١ ص ١٤٤.

(٣) المدخل إلى علم اللغة، د. رمضان عبد التواب والخانجي، القاهرة. ط ١ سنة ١٩٨٢. ص ٨٣.

١٠٢ الفرق بين الصوت والحرف:

يقول د. رمضان عبد التواب عن الفونيم (وفي إمكاننا نحن أن نطلق عليه اسم حرف) مقصوداً به الرمز الكتابي، ونعمل بذلك على التفريق بين الاصطلاحين (صوت) و (حرف). فالصوت هو ذلك الذي نسمعه ونحسه، أما الحرف فهو ذلك الرمز الكتابي الذي يتخذ وسيلة منظورة للتعبير عن صوت معين، أو مجموعة من الأصوات لا يؤدي تبادلها في الكلمة إلى اختلاف المعنى^(١) إذن الفرق كما قال د. تمام حسان (هو فرق ما بين العمل والنظر، أو بين المثال والباب، أو بين أحد المفردات، والقسم الذي يقع فيه، فالصوت عملية تطبيقية تدخل في تجارب الحواس، وعلى الأخص السمع والبصر، يؤديه الجهاز النطقي حين أدائه، أما الحرف فهو عنوان مجموعة من الأصوات، يجمعها نسب معين، فهو فكرة عقلية عضلية، وإذا كان الصوت مما يجده المتكلم فإن الحرف مما يُوجده الباحث^(٢) وهذه التفرقة بين الصوت والحرف جعل الحرف مساوياً للاصطلاح الغربي فونيم، والصوت مساوياً للاصطلاح الغربي الألفون، وهو أحد أفراد العائلة الفونيمية، وهو الوجود الفعلي للفونيم.

٢٠٢ تصور العلاقة بين الفونيم والألفون:

وهناك تصور للعلاقة بين الفونيم والألفون أي بين الرمز المكتوب والصوت المنطوق، فالرمز الكتابي (الفونيم) هو الوسيلة الوحيدة لكتابة اللغة، حيث يرمز إلى مجموعة من الأصوات المتشابهة، التي يمكن أن تدرج تحت هذا الرمز، أما التصور الآخر لهذه العلاقة؛ فهو الذي يعتبر الفونيم كالأب الذي له عائلة كبيرة تحمل خصائص هذا الأب، ولكن مع وجود تمايز بين أفراد هذه العائلة، حيث يتميز كل فرد من أبناء هذا الأب ببعض الخصائص التي تميزه عن إخوته، إلى جانب بعض خصائص هذا الأب.

(١) المدخل إلى علم اللغة. ص ٨٤.

(٢) اللغة بين الوصفية والمعيارية: د. تمام حسان، القاهرة ١٩٥٨ ص ١٣.

ولو عدنا إلى ذلك الأب فلا نجد له وجوداً فعلياً منطوقاً، حيث هو مجموعة من الخصائص الصوتية التي لا يمكن النطق بها. (أي التحقيق الفعلي لهذا الأب كصوت) إلا من خلال أحد أبنائه، أي من خلال سلسلة كلامية (كلمة أو عبارة) تحقق الوجود الفعلي لهذا الصوت. فيظهر لدينا في تلك اللحظة أحد أبناء هذا الأب، وليس الأب، ومن هنا تتعدد صور الأب (الفونيم) من خلال تعدد الصور التي ترد فيها من خلال السياقات اللانهائية التي نتكلم بها، وتمثل كل صورة من هذه الصور أحد أبناء الفونيم، وهو ما يسمى (بالألفون)، وتلك سلاسة ممتدة من هذا الأب لتكوّن سلسلة بشرية، أو سلسلة صوتية متحققة فعلياً بالنطق الدائم المتجدد لهذا الأب في كلام البشر الذي لا ينتهي.

لقد قال بهذا التصور دانيال جونز D.Jones: إن الفونيم عبارة عن عائلة من الأصوات في لغة معينة متشابهة الخصائص، مستعملة بطريقة لا تسمح لأحد أعضائها أن يقع في كلمة في نفس السياق الصوتي الذي يقع فيه الآخر^(١) هذا لأن كل عضو يمثل فرداً مستقلاً في تلك العائلة التي فقدت أباه (الفونيم).

ثم يذكر دانيال جونز سبب تسمية أحد أفراد العائلة رئيسياً فيرجع إلى:

- ١- كثرة ورود هذا العضو في الاستعمال اللغوي بصورة تفوق بقية الأعضاء.
- ٢- كونه العضو الذي يستعمل وحده منعزلاً عن السياق الفعلي.
- ٣- كونه في الموقع المتوسط بين بقية الأعضاء^(٢)

هذا التصور لدانيال جونز يشير إلى الصوت المنعزل عن السياق، وهو أقرب ما يكون إلى الصوت الفعلي الذي يرد في السياق ويكون بعيداً إلى حد كبير عن تأثيرات السياق الذي سيوضع فيه. ثم يوضع هذا الفونيم أو الصوت في سياق يحدد خصائصه الجديدة إلى جانب خصائصه الأصلية.

(1) D.JONES the phoneme , its Nature and use .p. 10,1962

(2) D, JONES the phoneme, p, 212

تحليل الفونيم:

يقول ماريوباي: "قابلية الفونيم للتحليل والتجزئة إلى وحدات ألفونية، حيث تشكل هذه التنوعات الصوتية المتشابهة وحدة الفونيم، وعليها يتوقف استعمال كل منها أساسا على موقعه في الكلمة وعلى الأصوات المجاورة."^(١)

وما ذكره ماريوباي من أن الفونيم قابل للتحليل بناء على موقعه في الكلمة والأصوات المجاورة له؛ قال به قبله ابن جني دون أن يستخدم كلمة فونيم، أو ألفون، ولكن في إطار حديثه عن تنوعات الحركات بناء على الأصوات التي تجاورها، يقول ابن جني: (باب في كم الحركات: أما ما في أيدي الناس في ظاهر الأمر فثلاث، وهي الضمة والكسرة والفتحة ومحصلها على الحقيقة ست، وذلك أن بين كل حركتين حركة. فالتى بين الفتحة والكسرة هي الفتحة قبل الألف الممالة، نحو فتحة عين عالم وكاف كاتب، فهذه حركة بين الفتحة والكسرة، كما أن الألف التي بعدها بين الألف والياء. والتي بين الفتحة والضمة هي التي قبل ألف التفخيم، نحو فتحة لام الصلاة والزكاة والحياة. وكذلك ألف قام وعاد، والتي بين الكسرة والضمة ككسرة قاف قيل وسين سير فهذه الكسرة المشمة ضما. ومثلها الضمة المشمة كسرا كضمة قاف المنقر... ويدل على أن هذه الحركات متعدت اعتداد سيبويه بألف الإمالة وألف التفخيم حرفين غير الألف المفتوح ما قبلها)^(٢) وهذا الكلام يفهم منه أن ابن جني يري الحركات تتغير بتغير الوسط أو البيئة الصوتية التي ترد فيها قبل أن يتكلم عنها المحدثون .

٣-٢ القيمة الصوتية التمييزية بين الفونيمات (القيمة الدالية):

تبدو القيمة الكبرى للفونيم في التمييز بين المعاني المختلفة، ويشير أد. حسام البهنساوى إلى ذلك بقوله: "معظم علماء هذا الاتجاه [الوظيفي] يشرحون الفونيم على أن وظيفته الأساسية في التفريق بين المعاني، ومن هؤلاء ترنكا: Trinka يقول: إن كل صوت قادر على إيجاد تغير دلالي.

(١) أسس علم اللغة: ماريوباي/ترجمة د. مختار عمر ، عالم الكتالقاهاى ١٩٩٨، ص٨٧.

(٢) سر صناعة الإعراب: ابن جنى: تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة ١٩٥٤م.

"بعض علماء هذا الاتجاه يشيرون إلى وظيفة الفونيم في تركيب اللغة، وفي التمييز بين كلماتها، ومنهم تروبتسكوى؛ الذي يرى أن الفونيم هو أصغر وحدة لغوية التي تستطيع بطرق التبادل، أن تميز كلمة من كلمة أخرى، وهو يعرف الفونيم بأنها: الوحدات الصوتية، التي لا يمكن تقسيمها إلى عناصر صوتية متتابعة من جهة نظر اللغة المعينة التي يقوم الباحث بدراستها. وهو يقرر بأن الفونيمات علامات مميزة، ولا يمكن تعريفها إلا بالرجوع إلى وظائفها في تركيب كل لغة على حدة"^(١).

ومن خلال حديث جاكلين فيسيار عن الطرق المختلفة لإخراج فونيم ما؛ أشارت إلى قيمة التمييز الصوتي بين الفونيمات في معرفة معلومات عن المتكلم ولغته وطريقة نطقه، وبيئته، وأثر السياق الصوتي الذي يحيط بالفونيم والحركات النطقية المحيطة بالفونيم في مقطع ما، فتشير إلى التمايز بين الأصوات بما يلي:

أ- تميزات صوتية تخص المتكلم:

"أولاً: تعود التغيرات إلى خصائص جسدية "فردية"، وهي تسمح بتحديد شخص المتكلم من خلال إعطاء إشارات عن عمره وجنسه وحالته الفيزيولوجية (صوت أجش، صوت مدخن) والعاطفية (صوت فرح، صوت حزن)"^(٢)

"ثالثاً: كلما تكلمنا بسرعة أو بتراخ، تقلص نتيجة لذلك الفارق النطقي بين الصوائت والصوامت، وازداد التبادل النطقي بين الأصوات المتتالية في السلسلة الواحدة، ونلاحظ أنه على الرغم من ذلك يمكن لبعض المتكلمين التحدث بسرعة كبيرة وبطريقة متراخية."^(٣)

"خامساً: يُكَيَّف كل متكلم طريقة لفظه مع الموقف التواصلي، من حيث المستوى (من الأشد "سُموا" إلى الأشد "عامية"، ومن حيث الأسلوب، ومن حيث

(١) الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث: ١٦١

(٢) الصوتيات: ٣٤

(٣) الصوتيات: ٣٥

الموقف الذي يعبر عنه (الاستياء، السخرية) وهو يستخدم لذلك كل الوسائل المتاحة له: فالتأنيف يُعبّرُ، في بعض اللغات، عن الاحترام، وعن الاشمئزاز في بعضها الآخر، ويمكن للمتغيرات أن تكون من النوع اللساني الاجتماعي، أو الاجتماعي الثقافي.^(١)

"أخيرا تضيف التغيرات الإرادية في طريقة النطق فوارق بسيطة في المعنى على الرسالة (Ivan Fongy): فالطريقة التي تتم بها لفظُ جملة ما، بلُطْفٍ أو دماثة أو برودة أو احتقار، تقوم بدور مهم في التواصل بين البشر. وقد تؤدي هذه المتغيرات إلى إحداث تغيير جذري في المعنى الإجمالي للرسالة..^(٢)"

ب- تميزات صوتية تخص بيئة المتكلم:

"سادسا: يختلف إخراج الفونيمات وتقابلاتها بين منطقة وأخرى: إذ يتم التعرف بسهولة على اللكنة الجنوبية "الغنائية" في حين تسمح فروقات أشد دقة بالتمييز بين لكنة "ليون" و لكنة "غروبوبل".^(٣)"

ج- تميزات صوتية تخص السياق الصوتي:

"ثانيا: يؤثر السياق الصوتي الذي يحيط بالفونيم في حركات اللسان والشفيتين، وفي حركة الحنك اللين والثايا الصوتية التي يتحقق فيها..^(٤)"

"رابعا: ترتبط الحركة النطقية بموقع الفونيم في المقطع، وبموقع المقطع في الكلمة، وبموقع الكلمة في الجملة، وفقا لهذا الموقع، يمكن أن يكون الفونيم مُهَيِّمًا: فيتم نطقه بشكل أفضل ولمدة أطول وبشدة أكبر، فيفرض بذلك بعضا من خصائصه على الفونيمات المحيطة به. في الحالة المعاكسة، يقع هو تحت سيطرة الفونيمات المحيطة به، فيتأثر بها إلى حد الاختفاء في بعض الأحيان.

(١) المرجع السابق: ٣٧

(١) الصوتيات: ٣٧

(٢) المرجع السابق: ٣٧

(٤) المرجع السابق: ٣٤

عادة، يتم إخراج الصامت الأول للكلمة وإخراج المقطع المنبر عند وجوده، إخراجاً قويا، أي بطريقة أكثر نمطية." (١)

وبهذا يبدو لنا دور الفونيم وخصائصه المتغيرة في تحديد الخصائص الصوتية للمتكلم وسماته الشخصية، بل حالته المزاجية والنفسية وبيئته، إلى جانب إشارة الفونيم إلى تأثير السياق الصوتي المحيط به عليه، وكذلك المقطع الصوتي الذي ورد فيه الفونيم، ولا شك أن نص القرآن الكريم وقراءته وفقا لقواعد التلاوة والتجويد، يعطينا تفسيرا واضحا لكثير من معانيه العظيمة، فهو الأساس في تحليلنا لمقاطعها ومواضع النبر فيه ولتتغيره .

٤-٢ أنواع الفونيم

يقسم العلماء الفونيم إلى:

أولا: الفونيم التركيبي

وهو عبارة عن الوحدات الصوتية التي تكون جزءا من أبسط صيغة لغوية ذات معنى منعزلة عن السياق، أو قل: الفونيم الرئيسي هو ذلك العضو الذي يكون جزءاً أساسياً في الكلمة المنفردة، كالباء والتاء. والألف والواو، وهي تكون ما يسمى بجزئيات الكلام، ولهذا توصف بأنها فونيمات جزئية أو تركيبية على اعتبار أن الكلام هو سلسلة كلامية، أو مجرى مستمر خلال زمن معين. وبناء على هذا يمكن أن يجرأ المجرى إلى فونيمات أو ألفونات منفصلة." (٢)

ثانيا: الفونيم فوق التركيبي

وهذه ظاهرة أو صفة صوتية ذات مغزى في الكلام المتصل، وهو عكس الفونيم التركيبي، لا يكون جزءا من تركيب الكلمة، وإنما يلاحظ فقط حين تضم كلمة إلى أخرى أو حين تستعمل الكلمة الواحدة بصورة خاصة. وهي لذلك

(١) المرجع السابق: ٣٦

(٢) أسس علم اللغة: ص ٩٢

لا تظهر في الكتابة، ولكن في النطق فقط ولأن الكلام امتداد متصل من التحركات التي تؤديها أعضاء النطق، فإن التجزيء إلى علل متتابعة يبدو أمراً مصطنعاً على الرغم من أنه ضروري وعملي لدراسة اللغة وتحليلها.

"وقد وجد في التحليل الدقيق، وعن طريق التجريب أن الانتقالات من نطق الساكن إلى العلة التالية، ومن العلة إلى الساكن التالي. تعد من أهم المفاتيح التي يملكها السامع لمعرفة أي أصوات الكلام تنطق، كما لاحظ العلماء أن المعنى ليس مرتبطاً بأصوات الكلام المنفصلة فحسب، وإنما كذلك بالتجمع الصوتي ككل.^(١)

ف نجد المتكلم يلعب في تلك المنطقة، وهي منطقة الانتقال من الساكن إلى العلة، أو من العلة إلى الساكن. ويتم ذلك من خلال زيادة أصوات العلة أو تقصيرها أو الضغط عليها، وهي أشياء لا تدرك إلا بالاستماع إلى المتكلم ومعرفة طريقته في التعبير عما يريد.

ولهذا نجد أصحاب نظرية الفونيم يضمنون إلى ما سموه بالفونيم التركيبي قسماً آخر سموه بالفونيم غير التركيبي.... وهي ملامح صوتية غير تركيبية مصاحبة تمتد عبر أطوال متنوعة، وتكون الجزئيء أو تتابع الجزئيات، ويرمز لها عادة برموز إضافية خارج رموز الجزئيات التركيبية^(٢).

وقد سميت فونيمات لأنها تحمل رسائل لغوية، ولها وظائف في داخل العملية الكلامية قد تؤدي إلى تحويل الكلمات من معانيها الأصلية إلى معان مغايرة ومخالفة للأصل. ولهذا السبب أجد أن هذا الجانب من الفونيمات (أي الفونيمات فوق التركيبية) جدير بالدراسة والتحليل، وخصوصاً إذا أضفنا إلى ما سبق القيم الصوتية التي تنتج عند مراعاة تلك الفونيمات من حدوث انسجام صوتي، ومعان إضافية يضيفها الألفون للكلمة، وإصدار نغم يؤثر في النفس.

وهذه الصفة الأخيرة هي الخاصية الهامة للفونيمات فوق التركيبية، حيث

(١) دراسة الصوت اللغوي: ١٨٦

(٢) دراسة الصوت اللغوي: ١٨٦.

تظهر في قراءة القرآن الكريم بوضوح، ولهذا جاءت فكرة هذه الدراسة وهي محاولة دراسة الفونيمات فوق التركيبية في سورة الواقعة، ومعرفة مصدر هذا الانسجام الصوتي، والنغم الخفي الموجود في هذه السورة بآياتها المختلفة. وهذه الفونيمات الفوق تركيبية تشمل (النبر stress - النغمة tone - التنغيم intonation - المفصل juncture - الطول length) وتمثل المقاطع الصوتية جزءاً من هذه المنظومة. يقول د. أحمد كشك "ومن البحث الصوتي أيضاً فهم تلك الملامح الصوتية التي تصاحب التركيب اللغوي كله، وذلك كالنبر والتنغيم والطول والسكّة وغير ذلك من السمات الصوتية التي له علاقة كبيرة بالتركيب وفهمه."^(١)

(١) من وظائف الصوت اللغوي: د. أحمد كشك، مطبعة المدينة، دار السلام ١٩٨٣ ص ٧